

• اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية •

أ. مصطفى شريك

محاور البحث:

- 1/ الواقع التعليمي في الجزائر قبل الاحتلال.
 - 2/ الاستعمار وأثره على واقع ثقافة المجتمع الجزائري.
 - 3/ الاستراتيجية الاستعمارية لمحاربة اللغة العربية.
 - 4/ إجراءات الاستراتيجية لمحاربة اللغة العربية.
 - 5/ انعكاسات الاستراتيجية الاستعمارية اتجاه تعليم اللغة العربية.
 - 6/ مقاومة المجتمع الجزائري للاستراتيجية الاستعمارية اللاتربوية.
 - 7/ التعليم العربي (مؤسساته وتأثيره على المجتمع الجزائري).
- * المراجع.

• هذه الدراسة للأستاذ مصطفى شريك نال بها الجائزة التشجيعية في مجال علوم اللغة العربية تدخل ضمن جائزة اللغة العربية الموسومة أبو العيد دودو لسنة 2004 والتي تم توزيعها في احتفال تكريمي يوم 25 أكتوبر 2004.

1- الواقع التعليمي في الجزائر قبل الاحتلال:

السمات الحقيقية التي تكشف عن الواقع التربوي بالمجتمع الجزائري قبل الاحتلال (أثناء الحكم العثماني) هي ملامح لصورة مجتمع يتميز بالكثير من الميزات والخصائص المؤكدة على ثراء التجربة العلمية وتطور نشاطها الثقافي رغم الشكل التقليدي الذي كانت عليه الصورة التعليمية (تعليم بعيد كل البعد عن الصور الحديثة للتربية). ذلك أن المجتمع الجزائري كان مجتمعاً مغلقاً ومنزويّاً إلى أطر محدودة من التربية والتعليم، ولم يسعى كباقي المجتمعات إلى إدخال الطرق العلمية، والأساليب الحديثة في ميدان التعليم وطرقه ومناهجه ووسائله، ولم يكلف الحكام أنفسهم الاحتكاك بباقي البلدان والاطلاع على مختلف الاكتشافات التي حصلت في شتى أنواع العلوم المعرفية.

إن اقتصر المجتمع الجزائري في ميدان التربية والتعليم على تدريس العلوم الدينية بدل مواكبة ما حصل من حضارة عالمية وتطور في العلوم الدنيوية، قد أكد على حقيقة الاتجاه التقليدي الذي كان سائداً، ومن هذه الصورة العامة يمكن أن نصور الانطباع الذي يعطي الصورة الحقيقية للمشهد التربوي في الجزائر قبل الاحتلال وذلك في النقاط التالية:

- رغم أن الصورة التعليمية كانت تقليدية لكن الوضع التربوي في الجزائر كان يعرف نوعاً من النشاط والحركة، وهذا بشهادة المحتلين أنفسهم فالمؤرخ الفرنسي - بولارد - كتب في مؤلف له عنوانه "التعليم في الجزائر" ما يلي: "كان في الجزائر في القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة، وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة والفقه والآداب والطب والنحو والفلك، وكانت المدارس منتشرة في ربوع البلاد، وكان التعليم فيها دينياً ومدنياً".⁽¹⁾
- اعتماد تدريس العلوم الدينية وكل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية من حفظ للقرآن الكريم، وتفسير بيانه وتلقين الأحاديث الشريفة، وكذا التبحر في علوم الدين من الفقه، والتفسير والنحو والبلاغة

(1) مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، السنة الرابعة، العدد 17 - 18، الجزائر : 1974/73، ص 71.

... رغم عدم وجود برامج أو مناهج مسطرة كسياسة عامة تتبع، وهذه الدروس الشرعية مدخلة فيها مقررات أخرى كالحساب والتاريخ والأدب والفلسفة والطب والفلك...

• المؤسسات التعليمية التي كان لها الدور الأكبر في نشر الثقافة العربية والإسلامية والعمل للحفاظ عليها، لم يكن دورها فقط كدور للعبادة بل ساهمت في نشر الدعوة الإسلامية، وتطوير اللغة العربية، فكانت مؤسسات بالفعل ذات إشعاع ثقافي رائد.

وهكذا زاجت بين وظيفتها الدينية والدنيوية، والبعد العقائدي والتربوي) وكان من هذه المؤسسات ما يعرف بالزوايا والرباطات التي ظهرت إبان العصور الوسطى، وأدت إلى حركات ثقافية قدر لها أن تستمر ردحا من الزمن ... وأصبحت مركزا للأدب والإمامة والإرشاد⁽¹⁾ بالإضافة إلى المعاهد الدينية، والكتاتيب والمساجد...

• عزلة المجتمع الجزائري وانغلاقه على حاله، وعدم تفتحه على حصيلة الخبرة الإنسانية وعدم الاستفادة من الخبرات العلمية كما حصل من ثورة صناعية في أوروبا، هذه العزلة الثقافية كانت سببا في عدم تجديد مناهج التعليم وتطويرها وفق الأطر الحديثة.

• انصراف الدولة العثمانية (الجزائر كانت تحت راية الحكم العثماني) في الجزائر إلى الجانب العسكري، فلم يكن الحكام مهتمين بالشؤون العلمية والثقافية، وهو ما يعني عدم وجود تشجيع مادي أو معنوي للنشاط التعليمي.

• تمويل النشاط التعليمي في ذلك الوقت كان هو الإشكال المطروح على كل الأصعدة بالنسبة للكثير من المؤسسات، لكنه بالمقابل كانت تنشط هيئة خيرية عرفت بمؤسسة الأوقاف التي كان لها دور في جمع الموارد المالية من خلال النفقات الشعبية (الصدقات، الهبات، التبرعات، الأوقاف ...) فساهمت هذه المصادر التمويلية في إنشاء مؤسسات إضافية وتجهيزها وتعميمها على باقي المناطق الأهلة بالسكان من مدن وقرى ومدائر، وكذا العمل على دفع أجور معلمي هذه المؤسسات ومؤطريها.

• السمة الأخرى التي يمكن ذكرها هي مجانية التعليم في بعض المؤسسات، إذ كان التعليم مجانيا في غير بعض الكتاتيب⁽²⁾ ويعتمد على الذاكرة والحفظ⁽³⁾ في مدارس منتشرة على كامل ربوع البلاد.

(1) مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 71.

(2) تركي رايح، مجلة الثقافة، السنة 15، العدد 88، الجزائر، ص 107

(3) نفس المرجع السابق، ص 107.

مهما تكن هذه السمات التي ميزت المشهد التربوي في الجزائر قبل الاحتلال فإن الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت تكشف عن حركية فعلية للانكباب على منابع الفكر والمعرفة والنهل من مشارب الثقافة العربية والإسلامية، على رغم من تميز فترة أواخر الحكم العثماني بالجزائر بالجمود وبداية الحملات الغربية بأساليبها التغريبية وهو ما أثر سلباً في محيط الواقع العام للمجتمع الجزائري في جانبه الاجتماعي وشقه الثقافي.

2- الاستعمار و خطره على واقع الثقافة الجزائرية:

لقد أثرت الحملة الاستعمارية على الجزائر من إحداث واقع مر ومحزن، لأنها حملة صليبية مست الكثير من الأوجه الحساسة والمرتبطة بقوام المجتمع وكيانه، فالمخطط الاستعماري الذي لم تعرف معالمه حين ذاك (بداية دخوله) كل مرامييه ومقاصده و حتى أبعاد حملته، أصبح فيما بعد صورة سلبية كشفت عن حقيقتها، بعدما رسم خطته وحدد معالمها، واستخدام الطرق الفنية والحيل التقنية، فأثر ذلك على الجوانب السياسية للمجتمع (بإحكام السيطرة عليه وافتكاك سيادته وفرض سياسة البطش و الاضطهاد على أهاليه) والاقتصادية (باحتكار موارده الطبيعية والزراعية والصناعية، ومصادرة أملاكه وتسخير قواه البشرية، خدمة لأغراض استعمارية) والاجتماعية (بحرمان الجزائريين من حقوقهم السيادية، وترسيخ التجزئة وزرع الفتنة لفك أواصر التماسك الاجتماعي و إلغاء قانون الأعراف والأحوال الشخصية للجزائريين) ناهيك عن تطاول أياديه على أحد مقومات الأمة الجزائرية وهي الثقافة العربية والإسلامية والهوية الوطنية وما تمثله كعماد للشخصية القومية الجزائرية.

إن امتداد يد الاستعمار وتغلغله في أضلع مجال حيوي هو بداية موجة تغريبية كان لها الانعكاس الواضح على كم من صعيد، وكأن مأساة حقيقية لا تختلف عن سلاح القوة و ربما أبعد منها واشد خطورة للسياسة الاستعمارية على الساحة الوطنية في جانبها الثقافي لخصها الأستاذ تركي رابح في النقاط التالية:⁽¹⁾

- الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية.
- مصادرة معظم المؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وتحويلها إلى مؤسسات للتعليم الفرنسي الخالص.
- منع تدريس اللغة العربية وجعل التعليم فقط باللغة الفرنسية بغية القضاء على العربية.

⁽¹⁾ تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط 3، الجزائر 1981، ص 103.

- فرنسة الإدارة ومنع التعامل بالعربية في أي إطار رسمي من المؤسسات.
 - إصدار قانون يجعل اللغة العربية كلغة أجنبية (قانون 1938).
 - إغلاق المؤسسات التربوية التي تدرس اللغة العربية ومنع إنشائها إلا بترخيص من الإدارة بهدف تضيق الخناق على حركات التعليم العربي.
 - إضعاف شخصية النخبة الجزائرية المفرنسة وجعلها أداة طيعة في يدها لتهديم الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية.
- إن معاول الهدم التي فرضها الكيان الاستعماري في الجزائر لم تتوقف عند هذا الحد بل تم السعي إلى:
- تحويل المساجد إلى كنائس والمدارس إلى ثكنات عسكرية أو إدارات أو حتى سجون.
 - جعل الثقافة الجزائرية ثقافة دخيلة وأن الثقافة الفرنسية وحضارتها الغربية هي التي تكتسي طابعا محليا بتشجيعها في الأوساط الشعبية خلال العمل على توسيع دائرة العامية بدل الفصحى وإرساء آليات التنقيف الغربي وتوسيع حيز المسخ والانسلاخ.
- هذه العجالة لا تكفي لاستعراض مسيرة قرن وربع القرن من البطش والظلم والاحتقار في جملة من السطور، لأن الواقع الذي كان يمثل حقبة طويلة، كان من الممكن أن تقضي على هذا الوطن وتمحو شخصيته وتسحق لغته وإسلاميته وتجعله في خبر كان.

3 - الاستراتيجية الاستعمارية لمحاربة اللغة العربية:

إذا قلنا الاستراتيجية الاستعمارية فإننا نقصد بذلك المشروع اللاتربوي(*) الذي تبنته الإدارة الاستعمارية في الجزائر كسياسة للقضاء على مكونات الشخصية الوطنية للمجتمع الجزائري بتركيباتها اللغوية والدينية والقومية وحتى الحضارية. فكانت هذه الاستراتيجية تعبيراً عن حادثة الاستعمار في صورة الغزو الفكري والقهر الحضاري بدل صورته القديمة من استيلاء مادي، والحال في الجزائر كباقي المستعمرات كما يذكر أحمد طالب الإبراهيمي التي فيها: " فرنسا لم تكتف بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه ومسح شخصيته بل عملت كذلك على إفساد الأئدة والعقول، وقد تجلى عملها التخريبي من إغلاق المساجد والمدارس التي كانت تعلم العربية، وفي هدم الزوايا، لأنها كانت مراكز لتنقيف الشباب، وغرس روح المقاومة في نفوسهم ... وهكذا قضت فرنسا على الثقافة الجزائرية عندما قطعت عن تلك

(*) اللاتربوي و هي عكس تربوي و التي تقيد الزيادة و النمو المشتقة من مفهوم تربية و لاتربوي تعني التدمير و القضاء و المحو. و القول بالمشروع الاستعماري اللاتربوي لانه مشروع سعي إلى محاربة اللغة العربية بدل تطويرها، و تشويه الإسلام كعقيدة بدل احترامه و استئصال الهوية بدل تأصيلها و تجهيل الأمة بدل تنقيفها فأى تربوية بعد هذا.

الثقافة جميع الروافد التي كانت تغذيها و تنميها" (1) وهكذا يكشف المسعى الخسيس لأيدي تغريبية تحاول طمس الثقافة الوطنية وتدميرها، والاستقراء التاريخي يبين كيف اتبع المستعمر سياسته في فك روابط اتصال الفرد الجزائري بجميع المنابع الروحية والروافد التي تمثل المنبت الحي، والجذور الأصلية له.

من الواضح أن اللعبة الاستعمارية ترمي إلى زرع ثقافة دخيلة، تهدد ثوابت الأمة، واستبدال عادات فكرية أصيلة بأخرى بديلة وتقاليد عريقة بأخرى غريبة، وكان من أولويات هذه الاستراتيجية هدفين اثنين هما:

أ / محاربة اللغة العربية: كرس المستعمر طيلة وجوده بالجزائر التخطيط للقضاء على اللغة العربية و منع انتشارها والتضييق على النشاط في مجال نشر العلم والثقافة العربية وجعل هذه اللغة لغة أجنبية في عقر دارها، و لأجل ذلك مورست أبشع الطرق، واستعملت أخطر الوسائل في طريق تعليمها بمؤسسات التنقيف المختلفة. و قد تمثلت محاربة الاحتلال للغة العربية في الأمور الآتية: (2)

1- فرنسة التعليم في المرحلة الابتدائية، وجعل اللغة العربية لغة أجنبية واختيارية في بقية المراحل الأخرى.

2- تقسيم اللغة العربية إلى ثلاث لغات يمكن إهمالها جميعا في التعليم:

- عربية عامية يستعملها الشعب وهذه لا قيمة لها، وبالتالي ليست مادة صالحة للتعليم في المدارس.
- عربية فصحي "لغة القرآن" وهذه مثلها مثل اللغتين اليونانية واللاتينية تعتبر لغة ميتة.
- عربية حديثة وهي معروفة بصورة باهتة في الجزائر لأنها نتاج بعض المتعلمين وهي في الحقيقة لغة أجنبية وأداة للقومية العربية ولذلك يجب إبعادها من برامج التعليم.

3- وأخيرا اعتبارها لغة أجنبية كما ينص قرار "شودان" (*).

هذه المغامرات التي سعى من خلالها المستعمر إلى القضاء على العربية كلفته الكثير من المتاعب والمشاق وكانت المناهج التي يسلكها كثيرا ما تعود عليه بالسلب إلا أنه لم يبأس كما " ... ولم يكتف بإثارة الطائفية، وإشعار الجزائريين بأنه من أروحة تختلف عن الأروحة العربية فقط، ولكنه عمق هذا الاتجاه بالدعوة إلى إحلال الكتابة البربرية بديلا للكتابة العربية، وإذاعة الأغاني وإحياء التراث البربري، وإيجاد مترجم لهذه اللغة في المجلس الجزائري، واعتبارها لغة أساسية للجزائريين" (1) والقصد هنا هو إبطال

(1) مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية و نظام التعليم الرسمي في الجزائر، دم.ج الجزائر، 1986، ص 108-109.

(2) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 131.

مفهوم المؤسسات التنقيفية وزرع الفتنة، وتفكيك البناء الاجتماعي للمجتمع وحل روابطه وتفتيت تماسكه بإثارة النعرات الطائفية والنزعة القبلية.

إن مأساة اللغة العربية كانت شبيهة كمن يصارع سرطان الفكر لأن المستعمر كما عبر الإبراهيمي "جاء إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، والاستعمار سم يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح" (2) سياسة اختط لها المستعمر وسخر لها إمكانات دنيئة وخططا شنيعة لكنه فشل في غربة* الأمة لأنه عربها** أكثر من حيث لا يدري.

ب/ محاربة الدين الإسلامي: ثاني وجهة للمستعمر بعد اللغة العربية كانت الحملة الشرسة ضد الدين الإسلامي، وفق حملة صليبية معلنة لتشويه العقيدة الإسلامية، والخط من شأن الإسلام ومطاردة رجاله والزج بهم في السجون، أو نفيهم إلى الصحاري أو مناطق نائية، ولذلك انتهجت الإدارة الاستعمارية سياسة خلاصتها مقولة الكاردينال - لافيجيري -: "علينا أن نخلص هذا الشعب، ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر" (1)، عالم تخدم فيه روح المقاومة، وتتطفأ فيه جذوة التحدي وتموت فيه عزائم الجهاد والتحرر، هذه هي أمنية المستعمر، والشواهد التاريخية تؤكد ما كان يدعو له سكرتير - بيجو - سنة 1832 عندما بدا مقتنعا بأن:

"آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذ أصبحوا مسيحيين جميعا" (2) وقد أتاح لفرنسا أن تخدر العقول، وتنتشر الخرافات والأباطيل، وتشن حملات تنصيرية من خلال بعثات تبشيرية تدعو للمسيحية، لكن هل تحققت هذه الأمنية؟ أكيد لا! ذلك أن المقاومة الشعبية التي قادها رجال دين مصلحين وحتى رجال من تنفقوا في مؤسسات الاحتلال، أدت إلى مجابهة حقيقية مع الإدارة الاستعمارية

(*) هو قرار وزاري أصدره الوزير - شودان - choudain - سنة 1938 يقر فيه بجعل اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر و يمنع تدريسها في معاهد التعليم إلا بترخيص من الإدارة الفرنسية.

(1) مجلة الثقافة العدد 87، ص 116.

(2) صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان / جويلية، الجزائر 1974 .

* غربة : مشتقة من التغريب، أي بنشر الفكر الغربي الاستتصالي لمسوخ الأمة .

** عربها : أي بسياسة التغريب التي زرعتها المستعمر لم يجني منها سوى تكاتف أبناء المجتمع الجزائري حول رموز الأمة و هويتها، و لم ينجح في مساعيه لنصب فخاخ التنصير و التغريب .

(1) نفس المرجع السابق، ص 29 .

(2) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 109 .

ففشلت كل محاولات الطريقة المنحرفة، وإسلامية رجال الزوايا المزيفين وحملة الشهادات الاستعمارية كما أشار سيرك - الذي قال: "لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي ترقية إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير" (3) وهناك ما هو أدهى وأمر، لكننا بصدد الحديث عن سياسة ضرب الدين الإسلامي لكنه لا يمكن الحديث عن العدوانية ضد العربية ولا نخرج عن سياسة مناهضة الدين الإسلامي، ولغة الإسلام هي العربية.

4- إجراءات الاستراتيجية لمحاربة اللغة العربية من قبل الاستعمار:

أدرك المستعمر مدى صلة المجتمع الجزائري بلغته وانتمائه ودينه، وشعر بخطورة رجال العلم والدين في الحيلولة دون تحقيق مآربه، والحاجز دون فرنسة أو تغيير المجتمع لأن الوعي الشعبي كان صامداً لأية محاولة أو مغامرة من قبل المستعمر. هذا الوعي والحصن المنيع مهدت له الإدارة الاستعمارية الكثير من الإجراءات والخطط والتي مست من ظاهرها وباطنها كل ما تعلق بثقافة المجتمع وهويته من خلال:

1/ منع تدريس اللغة العربية: سعت الإدارة الفرنسية إلى تطبيق أية مبادرة للتعليم العربي الحر وإجهاض أي مشروع لإنشاء مؤسسة تعليمية، إدراكاً من مسئوليتها بانعكاسات ذلك على سياستها، ومن ذلك أن أصدرت قانوناً يقر بتطبيق القوانين المتعلقة بالتعليم العمومي الفرنسي بموجب المرسوم المؤرخ في 13 فيفري 1883 أين إدارة التعليم "جعلته فرنسياً خالصاً في اللغة والمناهج، والتوجيه العام، وأنشأت نوعين من المدارس أحدهما خاص بأبناء الجزائريين، وجعلت التعليم فيهما معاً باللغة الفرنسية، وكان هدفها من ذلك إبعاد اللغة العربية وثقافتها من برامج المدارس الابتدائية في الجزائر طبقاً لسياسة فرنسة الجزائريين" (1) بالإضافة إلى قانون 1904 الذي أصدره الاحتلال يحظر فيه فتح أية مدرسة أو كتاب ويمنع أي معلم عربي من ممارسة مهنته إلا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط حددت كما يلي (2):

- اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير.
- عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد.
- استبعاد دراسة التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ المحلي وجغرافية القطر الجزائري، والأقطار العربية الأخرى.

(3) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 31 .

(1) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 125 .

(2) مجلة الأصالة، العدد 18/17، ص 72 .

- استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه.

ومن الإجراءات المتخذة ضد اللغة العربية ومؤسسات تعليمها هناك أيضا قانون 1938 والذي يمنع تدريس اللغة العربية أو التعامل بها. إذ صدر قرار وزاري من طرف وزير داخلية فرنسا- شودان - في 08 مارس 1938 يمنع العربية باعتبارها لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعليمها في معاهد التعليم سواء كانت حكومية فرنسية أم شعبية حرة كمعاهد التعليم العربي الحر إلا على هذا الأساس وبترخيص خاص من إدارة الاحتلال⁽¹⁾ وهكذا أصدرت الإدارة الاستعمارية الكثير من القوانين والمراسيم التي تدخل كلها في طائلة حرمان الجزائريين من معرفة دينهم و التمسك بأصالتهم رغم الرفض الصريح والعلني لكل سياسات الاستعمار.

2/ غلق مؤسسات التعليم العربي: بقدر ما كانت الإدارة الاستعمارية عازمة على تطوير تعليم اللغة العربية ومحاصرة أساتذتها، بقدر ما بادرت إلى اتخاذ جملة من الإجراءات الميدانية التي مست ربوع البلاد "ققد كانت معظم المدارس الوطنية تغلق بعد قليل من افتتاحها رسميا للتعليم ويسجن معلموها. وسيشرد تلامذتها، وتحاكم الجمعية التي أنشأتها وكل ذلك بهدف واحد هو عرقلة التعليم العربي، وتخويف المنظمات القائمة عليه، ومن هنا توالى عملية "تعطيل المدارس العربية الحرة" سواء نهائيا أم لأجل قد يطول أو يقصر، وكثرت القضايا المرفوعة في المحاكم الاستعمارية ضد المدارس العربية الحرة"⁽²⁾ ومهما كانت المبررات والحجج التي تبرر بها الإدارة الاستعمارية حول إغلاق المدارس. فإنها تبقى مبررات واهية وغير منصفة فالديمقراطية التي كانت تزعم حملها إلى الشعب الجزائري، وتلك الشعارات الداعية إلى تحضر المجتمع الجزائري ورفع الغبن عنه فإنها مجرد شعارات رنانة إذ عملت على العكس من ذلك فقد جهلته واحتقرته وأهانته وشردته وجردته من رموزه باستهداف ثقافته التي صعدت حربها فيها على حد قول الشيخ-الإبراهيمي- "يرجع تاريخ هذه المشادة القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي، إلى خمسة عشرة سنة، فهي مقارنة لظهور جمعية العلماء تقريبا، ولكنها تشدد وتتعمد في كل سنة تبعا لنمو الحركة الإصلاحية، واستعمالها وتطورها. فكما اشتدت حركة التعليم وامتدت ظهر للحكومة فيها رأي فسنت لشلها قانونا أو قرارا وسكنت عن تنفيذه إلى حين... ولذلك يجب مقاومة هذه القوانين المفروضة على الشعب في أمر يتعلق به وحده وهو دينه و لغته، وهي حرب على ديننا ولغتنا، ولا نحترمها ولو أدت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة"⁽³⁾.

(1) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 130 .

(2) نفس المرجع السابق، ص 178 .

(3) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 62 .

وأن الشواهد التاريخية تؤكد أن المدارس والمعاهد والكتاتيب والزوايا والرباطات كانت منتشرة عبر كامل القطر الجزائري فعلى سبيل المثال⁽⁴⁾ :

كان في مدينة قسنطينة قبل دخول الاحتلال إليها في عام 1837 ثمانون مدرسة، وسبعة معاهد، وثلاثمائة مدرسة، وزاوية في منطقتها لم يبق منها بعد الاحتلال سوى ثلاثين مدرسة فقط، وكان يوجد في مدينة عنابة 39 مدرسة و 37 مسجدا و زاويتان قبل الاحتلال لم يبق منها بعد الاحتلال سوى 3 مدارس فقط و 15 مسجدا.

إن استبدادية الحملة الاستعمارية في قوة بطشها وشناعة سياستها وبشاعة أساليبها لم تستطع أن تخدم الجذوة في نفوس الجزائريين، بل زادت فيهم من الإرادة والعزيمة أكثر وأكدت على رفض الاستعمار وكل إغراءاته.

3/ **فرنسة التعليم:** ونعني بـالفرنسة: " إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها، محل اللغة العربية وثقافتها في الجزائر، حتى ينسى الجزائريون - بمرور الزمن - لغتهم وثقافتهم القومية ويستعوضوا عنها باللغة والثقافة الفرنسية"⁽¹⁾ إذ بعد أن حاربت الإدارة الاستعمارية اللغة العربية، وطاردت معلميهما وأحكمت السيطرة على مؤسسات تعليمها، جاءت لتنفيذ ما عزمت عليه من تطبيق لسياسة الفرنسية، بتعميمها في كل المؤسسات والإدارات، وفرضها في شتى مجالات الحياة العامة، ولأجل هذا اتخذت جملة من الإجراءات لهدفين: الأول حتى تستميل أبناء الجزائر، وتمتص غضبهم وتنسيبهم التعليم العربي، وبذلك تقضي على كل ما يهدد أمنها و مصالحها، والثاني هو القضاء على كل مقومات الشخصية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري، فشجعت بذلك التعليم (المفرنس) وتم إصدار قوانين ومراسيم تقرر بذلك منها:

- المرسوم المؤرخ في 14 جويلية 1850 القاضي بإنشاء 40 مدرسة.
- المرسوم المؤرخ في 30 سبتمبر 1850 القاضي بإنشاء المدارس الحكومية الثلاث التي هي ثلاثة معاهد في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان، وبها حاول المستعمر أن يستبد باللغة العربية ويبطش بالإسلام.
- قرار 1879 القاضي بتأسيس المدارس الدينية المسيحية لتظهر الحملة الاستعمارية على الجزائر في صورها الحقيقية التي كانت في جوهرها صليبية الدافع والهدف.

(4) تركي رابح، المرجع السابق، ص 96 .

(1) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 106 .

- المرسوم المؤرخ في 13 فيفري 1883 المتعلق بإجبارية وعمومية التعليم.

وهكذا كانت الحملة الاستعمارية التي سخرت المبشرين والمنصرين وتواطأ معها الطريقين والعملاء لضرب العربية والإسلام، وتم عزل العربية وإقصائها من كل فصول التعامل والتداول وبذلك سعت الإدارة لقطع أية صلة بالفرد الجزائري مع ما يربطه بهويته وقوميته، ومنعت الجرائد الصادرة بالعربية والكتب والمجلات، ومنع تدريسها في مؤسسات التعليم الرسمية، وحتى في المدارس الحكومية سعياً منها لجعل الفرنسية هي اللغة الرسمية والأولى وحتى الوحيدة في البلاد، وبين سياسة المحتل ورد فعل المجتمع الجزائري تقول المؤرخة الفرنسية - يوفان تورين - yvonne Turin "وبدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانه وتفكيره وأسلوبه في الحياة مستعملاً المدرسة والمستشفى، المعلم والطبيب..."⁽¹⁾ والعمل على استمالة بعض رجال العلم المزيفين الذين هم رجال هدم لا علم ورجال ظلم لا سلم، تواطأوا مع الاحتلال سعياً لاستهداف الإسلام ولغة الإسلام، فكانت ضربات موجعة حقاً، وجاء على لسان "محمد عمارة" قوله: "وحتى يحقق الاستعمار الاستيطاني للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر، كان السعي الحثيث والعنيف لسحق قومية الجزائريين العربية ونزع هويتهم المتميزة، وهي العروبة والإسلام، طالما كان الإسلام محافظاً على عروبتهم ومغايرتهم للفرنسيين ... فسعوا إلى فرنسة الجزائر لغوياً بإحلال الفرنسية محل العربية، وكتبوا بأحد التقارير التي وضعت سنة 1847 - أن الجزائر لم تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها، والعمل الجبار الذي يتحتم علينا إنجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهو السبيل لاستمالتهم إلينا وتمثلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين". هذه الحملات التي تنبأها الاستعمار وظف لها هيئات ومؤسسات ومنظمات كأداة طيعة في يده، تخدم مصالحه وتحقق أغراضه مثلما حدث مع إحدى إرسالياته التبشيرية التي جاء في تقريرها، والذي ورد في مقدمة شاتلييه عن إرساليات التبشير البروتستانتية " ... ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته... ذلك بالنسبة للغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية"⁽²⁾ لكن هل نجحت تلك المحاولات ؟ لا بالتأكيد لا ! لأن المستعمر بذاته اعترف بفشل مخططاته عندما يكتب مؤرخوه ذلك، فقد كتبت - تورين - " ... ورد المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي

(1) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 59 .

(2) شاتلييه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: محب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، جدة، ط 2، 1987، ص 13 - 14 .

عشرين سنة (1830-1850)، يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها المريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالإسمت المسلح يحمي من التفكك والاندماج...⁽¹⁾ وأي اعتراف كهذا وأي شهادة تثبت الفشل الذريع كهذه. وهو ما ذهب إليه ساطع الحصري عندما كتب "... ومع ذلك لم ينجحوا (أي الفرنسيين) فيما كانوا يرمون إليه: ويمكن التأكيد بأن الجهود التي بذلها هؤلاء في هذا السبيل (أي الفرنسية) لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر، ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم وتبعيدهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام، لأن الناس صاروا ينظرون إلى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتصوير"⁽²⁾ وهذا الفشل الذريع له أسباب سنوردها في الصفحات الموالية.

4/ محاصرة رجال التعليم العربي: جاء في أحد تعابير الشيخ - البشير الإبراهيمي - أنه "بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم ونحن نقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة، فالسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة (وهو هنا يتحدث بلسان حال جميع معلمي اللغة العربية) وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام و مقاعد الاتهام، وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخراً أن تكون التهمة (فتح مدرسة دينية، وقرآنية بدون رخصة)، وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية و الإسلام و يسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين و يسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد..."⁽³⁾ هذه الصورة التي مثلها تعبير الشيخ هي: النظرة التي شبه بها المعلم العربي كفرد مجرم يتمرد على عرف المستعمر، وأن المستعمر هو صاحب الحق والمؤهل لفرض القانون (حال الدنيا)، لقد حاول المستعمر استهداف المعلم والمدرس والإمام وإدانته بانتهاك ضوابطه المزعومة، والعمل على تضيق الخناق عليهم، والزج بهم في السجون أو نفيهم نحو الصحراء مثلما حدث للشيخ الإبراهيمي الذي لم تنه غربة المنفى بالعودة إلى النشاط من جديد كما عبر "... بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولما أطلق سراحى من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين (1943) كانت فاتحة أعمالى تنشط حركة إنشاء المدارس، فأنشأت في سنة واحدة ثلاثاً وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسا عربيا مسلما فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة، وتهافتت الأمة على بذل الأموال لتشييد المدارس حتى أشرفت على

(1) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 59 .

(2) نفس المرجع السابق، ص 60 .

(3) نفس المرجع السابق، ص 63 .

الأربعمائة مدرسة⁽¹⁾، هذا التطويق، وهذه الإجراءات التعسفية ضد رجال العلم والثقافة، فقط لأنهم يشكلون خطرا على سياساتهم، ولأنهم بحسب مهنتهم قادرون على نشر الوعي الوطني وتحريك روح المقاومة الشعبية، وبالتالي تحتم تفكيك هذه القنابل (معلمي العربية) قبل أن تصبح ألغام تهديد مزروعة على كامل القطر.

إن معلمي العربية تعرضوا إلى كثير من العنف والتهديد والتصيد على أكثر من صعيد، وأمن إهانات لشخصيته (ضرب، حبس، ...) ودفع غرامات مالية، و ... مثلما عبر الشيخ الإبراهيمي: " ... وارتاع الاستعمار بهذه النهضة التعليمية الخطيرة وترىص بها، اشتعال الحرب الأخيرة، وقضى على معظمها بالتعطيل والاستيلاء على كثير من المدارس لاستعمالها في المصالح الحربية، واعتقال كثير من العلماء ورجال التعليم، ونفي قادتهم إلى الصحراء، منهم كاتب هذه السطور فقد قضى الثلاث سنوات الأولى للحرب منفيا في صحراء وهران" هذه الصنائع الشنيعة تزايدت أكثر بعدما شعرت الغدارة الاستعمارية بانتشار المؤسسات التعليمية العربية، وتزايد نشاطها لتشكل حسبها مراكز إشعاع للجزائريين وبؤر تهديد لإدارتها.

5/ مصادرة أملاك قطاع التعليم العربي: لم تكف الإدارة الاستعمارية بغلق مؤسسات التعليم العربي، وطرد علمائها ومشايخها وتضييق الخناق عليهم، وفرض سيطرتها على كامل المؤسسات، سارعت إلى الاستيلاء على أوقاف المؤسسات ومصادرة أملاك وعقارات كانت تابعة لهيئة الأوقاف، وهي الهيئة التي كانت تشرف على تمويل التعليم العربي والإنفاق عليه في كثير من المدن والقرى ويذكر الشيخ - البشير الإبراهيمي - ذلك الحال بقوله "... الأوقاف الإسلامية مفقودة في الجزائر لأن الاستعمار الفرنسي صادرها، ولم يفرق بين أموال الله، وأموال الحكومة التركية المغلوبة، ولقد كانت الجزائر أغنى الأوطان الإسلامية بالأوقاف، وكان في مدينة الجزائر وحدها ثمانية آلاف عقار لم يبق منها ولا واحد..."⁽²⁾، إذ كانت هذه الإجراءات أشد عنفا على قطاع التعليم العربي ذلك أنه يحرم كثيرا من أفراد المجتمع من حقهم في التعليم والتنقيف، وعرفت الجزائر مأساة ثقافية، لأن نوايا المستعمر كانت أكثر خبثا وأكثر دناءة، خصوصا مع سلب ومصادرة حق الجزائريين، ويقول أيضا الشيخ في هذا الشأن أنه "عز على المستعمر أن يترك للمساجد التي سلمت من المعاول والتكنيس (أوقافا) تمدها بالحياة، فوضع اليد عليها، وضمها إلى أملاك الدولة، فلم يخلق بذلك الرسالة الدينية لهذه المساجد، وإنما - وهي جامعات للعلم والمعرفة - أخدم الحياة الفكرية، وشل

(1) البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 27-28.

(2) البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 424.

النشاط الثقافي⁽¹⁾، والمؤسسات التي تطالها معاول الهدم، تطاولت عليها الأقدام النتنة من مبشرين أو جنود عسكريين، ذلك أن الكثير من المؤسسات المصادرة تحول إلى مؤسسات تابعة للمستعمر، كتحويل المساجد إلى كنائس قبل ما حدث لـ:

- مسجد كتشاوة حول إلى كنيسة على يد : دي رو فيقو .

- مسجد البليدة حول إلى كنيسة على يد: الجنرال فالي .

- مسجد وهران حول إلى كنيسة على يد: الجنرال لامور سيسر .

وغير هذه المساجد كثير في كامل تراب القطر، وتحولت المدارس إلى إدارات و أخرى لثكنات عسكرية ومحلات تجارية كما اعترف بذلك " الدوق دومال Dauk Daumal " في تقرير له إلى حكومة باريس فقال: "قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين أو ثكنات، أو مرابط للخليل واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد"⁽²⁾.

بالإضافة إلى هذا كله واصلت الإدارة الفرنسية اللعبة التغريبية في طبخ مليء بالسم والخداع، كله استيلاء (aliénation) ثقافي يزرع ثقافة دخيلة بديلة على حساب ثقافة أصيلة، مما يهدد بقاء الأمة واستمرارية وجودها، وأكثر ما أضر بالمجتمع هو ما كانت الحملة تستهدفه إذ "أن الهدف الذي كان يرمي إليه الاستعمار... هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين مقطوعة عن الجماهير الشعبية بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء عن ذويهم، فتقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتكبرون للتقاليد ويتشبهون بأسيادهم"⁽³⁾

فكان اغتراب الفرد الجزائري في أرض هي من أرضه، وفي مجتمع هو صانعه، اغتراب ذو وجهين:

• الوجه الأول: هو وجود أمة مسلوقة مغلوبة وأفراد مستلبون (بفتح اللام)، أفرادها غرباء عن واقعهم و أرضهم ووطنهم.

• الوجه الثاني: هو أفراد (نخبة مزيفة) معوقون فكريا، مستلبون ثقافيا تشبعوا بثقافة غريبة، ينتشبهون بأسيادهم، فهم بذلك أفراد غرباء عن أنفسهم بمنطق: أنا لست أنا، فمن أنا إذن؟.

(1) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 21 .

(2) تركي رايح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 127 .

(3) مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية و التعليم الرسمي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 109 .

5- انعكاسات الاستراتيجية الاستعمارية اتجاه تعليم اللغة العربية:

تبعاً للوسائل والإجراءات التي باشرت بها الإدارة الاستعمارية في تجسيد مشروعها اللاتربوي بغية القضاء على روح الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية كانت لذلك نتائج سلبية، وانعكاسات سيئة على الواقع الثقافي في المجتمع الجزائري، يمكن حصر بعضها في النقاط التالية:

1. استفادة أطراف من المجتمع من التعليم الرسمي (أبناء العملاء، أبناء الملاك، أبناء العقاريين، أبناء التجار والحرفيين الكبار...) أي أصحاب المال والنفوذ وكل البرجوازيين الذين هم عملاء أو يتعاملون مع الإدارة الاستعمارية أو الذين يعملون لمصلحتها، وحرمان أطراف وهي فئة أبناء الفلاحين، وأبناء الفقراء... وإن تعلموا فإنهم يوجهون إلى العمل في المجالات الزراعية والصناعية قصد الاستفادة من خدماتهم كقوة تحرك الجهاز الاقتصادي للدولة الأم (حسب رأيهم)، إلا أن كثيراً منهم يمتنع عن مواصلة تعليمه، بعد أن شكك هؤلاء في المدارس الاستعمارية ليتسرب الريب والحذر، واعتبروها فخاخاً للتغيير، مما نفر الناس منها.

2. إجحام الكثير من أبناء الجزائريين على الالتحاق بالمدارس الفرنسية وتفضيلهم الأمية والجهل على التعليم بمدارس تسعى إلى قطع صلتهم بهويتهم وعقيدتهم، ويعبر الشيخ - البشير الإبراهيمي - عن تلك المساعي بقوله: "... إن الاستعمار صليبي النزعة فهو - منذ أن احتل الجزائر - عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة، وخفية، سريعة ومتأنية..."⁽¹⁾.

3. وجود نظرة فوقية (متعالية) اتجاه أبناء الجزائريين، بالنظر إلى تعليمهم بعين تنم عن شعور الاحتقار والتفوق، فهذا مفتش التعليم بمدينة سطيف سنة 1897 يعبر "... أنه لا حاجة إلى وضع تعليم شامل للجزائريين الصغار، لا نود أن يصبحوا علماء متعطلين مرتبين في درجة لا يستحقونها لأن المناصب المرموقة محجوزة كلها للفرنسيين لا غير..."⁽²⁾ ويؤكد هذا التمييز عن الحقد الدفين، والاحتقار الشديد الذي يكنه المستعمر للفرد الجزائري، حتى وإن كان هذا الأخير هو صاحب الحق في الأرض،

(1) البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 419.

(2) الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال، مجلة الثقافة، العدد 95، السنة 16، 1986، ص 259.

ويؤكد فعلا أن قليلا من الجزائريين الذين يكون بوسعهم الالتحاق بمقاعد الدراسة، وقليل منهم فقط من يلقي حسن المعاملة والاهتمام (اللهم إلا إذا كان ابن عميل أو ابن صاحب جاه...).

4. بروز نخبة مثقفة ثقافة غربية من الجزائريين تكونت في مدارس فرنسية، وبلغة غير عربية، فئة (نخبة مزيفة بطبيعة الحال) راعتها الإدارة الاستعمارية، كونتها وساندتها وباركتها ودعت لها، وجعلت منها فئة الاشراف ومن المقربين إلى الادارة ونالت حظها في الوظيف العمومي الراقى، وهذا لكي تجعل الإدارة الاستعمارية هذه الفئة أداة طيعة في يدها، وبمثابة معاول هدم لضرب الثقافة العربية والإسلامية، فئة أبدت الإخلاص للمستعمر والخلاص للوطن.

5. بروز صراع فكري، ثقافي، وحتى ديني بين فئتين واحدة معربة وأخرى مغربة، الأولى تتلمذت في مؤسسات التعليم العربي (الزوايا، المدارس القرآنية، الكتاتيب...) وتحمل راية الفكر الحضاري الأصيل، والثانية تتلمذت في مؤسسات ومدارس التعليم الرسمي الفرنسي (تحمل راية الفكر الغربي والثقافة الهدامة)، هذا الصراع لم يخدم الطرفين بقدر ما خدم المستعمر، وهو ما توضحه كلمة هذا الخطيب بمسجد شرشال سنة 1904 الذي يشيد بحكومة الاستعمار: "... واعلموا أن هذه الدولة رحمة من الرحمن تحت على نشر العلوم، وإصلاح ما فسد، وقمع أهل البهتان، فلا يمكننا أن نتجاسر فنلقي العداوة في قلوب حكومتنا، بل نبذل جهدنا في الطاعة والشكر لها لمنافعها العظيمة"⁽¹⁾ فعلا هذه الشهادة تؤكد أن المستعمر قد استمال الكثير وأبدع في تفكيك الصف الوطني بتثنية عملاء يخدمون دعوته ويدافعون عن لغته وثقافته، فئة تخدرت لها العقول، وتشبعت بالفكر الغربي التغريبي ونالت الوظيف والوسام، فهامت بالمستعمر وأشادت بإنجازاته وبلغت رسالته.

6. تزايد الضربات الموجعة للغة العربية والدين الإسلامي، من تزييف وتشويه، كثرت بذلك الأمراض الاجتماعية وزادت الانحرافات في الأوساط الشعبية، وكثرت الأساطير والخرافات بفعل حملات المستعمر لتجهيل الأمة وجعلها أمة مخدرة، ميتة تحت على الفكر المضلل وتنهض على طقوس الدراويش إذ جاء على لسان المؤرخ أحمد توفيق المدني: "... و آل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام... ونقشت إثر ذلك بدع وأباطيل، لا تشوه وجه الإسلام السمح وحده، بل تسود وجه البشرية برمتها، يزعمون أنهم يقومون بها زلفى وتقربا إلى الله، كضرب الدفوف، والرقص، واختلاط الرجال بالنساء، وأكل الحشرات السامة، والتمرغ على الأشواك، والتشبه بالحيوان، لا عجم في مشيته و أصواته"⁽¹⁾ هذا هو حال الجزائريين الذين يمارسون طقوسا ما كانت من عادات المجتمع، ولا من شيم ثقافته، ولا من

(1) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 33 .

(1) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 32 .

شيم حضارته، ولا حتى من قيم دينه، فقط تمارس على أنها سنة يتقربون بها إلى الله عن طريق الذبائح والولائم، لكنها في حقيقتها هي من صنيع المستعمر وأحد خططه لتنشيط خطواته وحده في الوسط الشعبي، ومن ثم المساس بالهوية العربية الإسلامية بدل تعليم أساليب الحياة وتنقيف أبناء الجزائريين سعى إلى نشر الخرافات والأساطير ليهدم ثقافة الأمة وحضارتها ومن ثم تجهيلها لتصبح أمة ميتة عاقرا، وإن أنجبت، ولدت فكرا معوقا.

6- مقاومة الاستراتيجية الاستعمارية التربوية:

أمام الإمكانيات والوسائل التي سخرتها الإدارة الاستعمارية لتمديد إستراتيجيتها وإنجاح حملتها الصليبية. وأمام كل المحاولات للتشويه والتضليل بقي المجتمع الجزائري يصارع ويكابد الصراع متحديا الإدارة بإرادة من حديد، وبقيت نفس الجزائريين متعلقة بعاداتها بثقافتها وعقيدتها وعروبته، وتمسكة بهويتها وشخصيتها، وواجه المجتمع سياسة المراسيم والقرارات والطرق المبتدعة، وكل خطط والتقرب المخادع والتعاطف المراوغ، وواجه محاولات إذابة المجتمع وتعريه من محتواه الأصيل.

لقد تجسدت مقاومة الشعب الجزائري لحملة الاستعمار التغريبية والفرنسية والتجهيل في إنشاء فئات من المدارس الحرة يمولها الشعب بواسطة التبرعات والاشتراكات، وتوجيه أبناء المجتمع نحو التعليم العربي وتغذيتهم بالشعائر الدينية وتعليمهم القراءة والكتابة باللغة العربية، فزاد الإقبال على هذه المؤسسات وتكون المشروع التربوي الحقيقي الأصيل، ومن بين الأمور التي قام بها المجتمع لمواجهة استراتيجية المشروع اللاتربوي الاستعماري مايلي:

1. الإحجام عن الالتحاق بالمدارس الرسمية التي تعلم باللغة الفرنسية والتي كانت بمثابة مؤسسات للتصير وترويج الفكر المسيحي، حتى وإن التحق بها أبناء الأعيان الكبار والقياد وأصحاب النفوذ...
2. يقظة الشعور الواقعي والواعي الذي يكشف السياسة الواهية التي تتبعها الإدارة الاستعمارية وإحساس الجزائري بأن الذي يحتقره ويفقره ويضطهده لا يمكن أن يوفر مدارس وتعلما بلا هدف أو مقابل، لذا فضل العديد من الجزائريين العزوف عن التعليم وتفضيل الجهل على التعليم المفرنس.
3. الوقوف اليد في اليد بجعل المستعمر يشعر ويفتتح بعجز مدارسه عن تأدية الوظيفة التي أنشأت من أجلها، وإخفاقها في وظيفتها المنوطة بها وهي تفريغ العقل الجزائري من الفكر العربي الإسلامي وتعبئته بالفكر الغربي الخالص.
4. معاقبة كل من يتواطأ مع الاحتلال من رجال فكر مزيفين، ورجال دين مضللين، من طرفيين ومعلمين بشهادات فرنسية لأنهم يعتبرون كالسوس الذي ينخر جسم المجتمع.

5. إنشاء المدارس والمؤسسات التعليمية لتفعيل النشاط التعليمي، وتشجيع دور المسجد والكتاب والزاوية حتى وإن لاقوا كلهم من العراقيل والإجراءات التعسفية من غلق للمؤسسات ومعاقبة القائمين عليها بالنفي أو بالحبس...

6. تحرك دعاة الإصلاح ورجال العلم والثقافة لتخليص المجتمع من الفكر المضلل اللصيق بالدين الإسلامي، وتمكين المجتمع من التنقيف بفكر خالص ومبدع.

7. إحياء وتنشيط التعليم باللغة العربية مقابل إضعاف دور المدارس الرسمية والحيلولة دون الإقبال عليها، من خلال التسهيل والمساهمة في تشجيع تسجيل عدد أكبر من الجزائريين وإلحاقهم بمؤسسات التعليم العربي.

8. إعلاء راية الإسلام في وجه المد الصليبي الهادف إلى التنصير، وتمكين المؤسسات الدينية والتنقيفية من أداء واجبها العقائدي، والنهوض بالإسلام والرفع من شأنه ومحاربة التشويه الذي ألصقه به المستعمر.

9. الالتفاف حول العلماء والأساتذة و تنشيط حلقات العلم في كل ربوع الوطن حتى تلقى تجاوبا في نفوس أبناء المجتمع، وتشجع على تقوية صفوف التعليم العربي، وإحداث نقلة ثقافية بلغة المجتمع الأصيلة وعقيدته المتأصلة.

10. عودة ثقة الجزائريين بأنفسهم، وإدراكهم بأن القضية تتعلق بأمة مسلوقة الحقوق، واستراتيجية مستعمر سالب للحق والأرض والعرض، ومن ثم بعث روح التحدي والإرادة وبث الشعور الواعي والإصرار على محاربة الاستراتيجية اللاتربوية.

وبهذا شكل المجتمع جدارا حقيقيا في وجه المستعمر وحال دون هدم بنية المجتمع ودون حدوث أي شرخ في أقومته الثلاث من هوية وعروبة وعقيدة، وكان لدور التعليم العربي دوره الفاعل في فشل الاستراتيجية الاستعمارية.

7- التعليم العربي (مؤسساته وتأثيره على المجتمع):

يمكن تعريف التعليم العربي الحر على أنه "تلقين للدروس والمحاضرات ونشر للثقافة العربية والإسلامية في مؤسسات شعبية كالكتاتيب والزوايا والرباطات والجوامع والمدارس القرآنية والمعاهد الدينية، يشرف عليها أساتذة ومعلمون ومشايخ، يشجع على نشر الوعي الديني والفكر الأصيل وينهض بمستوى اللغة العربية كلغة أولى ووحيدة في المجتمع" وقد عرفت الجزائر حركة إصلاحية قادها مفكرون كبار

انحصر عملهم في إحياء الثقافة الوطنية والحفاظ عليها والعمل على نشرها حتى لا تتأثر بالحملة الاستعمارية التي استهدفتها.

شكل التعليم العربي الحر موقعه على المشهد الثقافي الوطني، واستطاع القائمون عليه توسيع دائرته من المدن إلى القرى فالمدن، وتوسعت بذلك حلقة الوعي الحقيقي بالشعور الوطني، ومن بين المؤسسات التي كانت تمثل مراكز إشعاع حقيقي لنشر الثقافة العربية نجد:

1/ المساجد: ولعبت دورا تربويا هاما كأماكن للتنقيف ونشر الفكر العربي الخالص، في شتى جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية منها... ولم ينحصر دورها كدور للعبادة، كما كانت بعض المساجد بمثابة معاهد عليا لامتلاكها مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات ومركزا ثقافيا ودورا للحكمة، كما تلعب المساجد دور المؤسسات الاجتماعية للتنشئة من خلال الحلقات التي تقام لتنشئة الأجيال، وأحيانا على شرف العلماء الكبار والأساتذة المشايخ، وقد كان الأثر البالغ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في رفع روح التحدي والمساهمة في بناء و إنشاء العديد من الجوامع وعلى نطاق واسع من البلاد حتى تستجيب للضرورة الملحة لدى أبناء المجتمع في نشر اللغة العربية والنهل من مشارب الثقافة العربية الإسلامية.

كان التعليم العربي في الجوامع يستمد أساليب التدريس ومناهج التعليم من مبادئ الإسلام ومقاصده ومما كان يتم (تحفيظ القرآن الكريم، ذكر الأحاديث النبوية الشريفة، شيء من الروايات وأخبار السلف الصالح باعتماد الأسلوب القصصي الممتزج بالموعظة والذكر الحسن والحكمة السديدة، وعادة ما تكون الحرية للقائم على الجامع أو المسجد المسؤولية عن شؤون المتعلمين، وله حرية تحديد مادة درسه وبحسب اجتهاده وسعة اطلاعه ودرجة علمه، وأحيانا يستشير تلامذته حول نوعية الدروس التي يبتغون مناقشتها.

لكن ما فتئت هذه المراكز تؤدي واجبها حتى هال المستعمر ما أنجزته من تطور وما أحدثته من تحول في المجتمع، فراح يحبك لها المكائد ويصدر الأوامر بتحويل الكثير من الجوامع والمساجد إلى كنائس، ومراكز عسكرية، ليتناقص عددها.

من أشهر الجوامع التي كانت منتشرة على مستوى الوطن:

الجامع الأخضر بقسنطينة، ومسجد شرشال، جامع سيدي قموش، والجامع الجديد، الجامع الأعظم وجامع سفير وجامع سيدي رمضان بالعاصمة.

2/ المدارس: لعبت المدارس الحرة إلى جانب المساجد دورا هاما في ميدان نشر الثقافة العربية والإسلامية، وإذ كانت المدرسة آنذاك تحتوي على حجرة للتدريس، وقاعة لإقامة المعلمين، وقاعة لإقامة

المتعلمين، وقاعة للصلاة (مصلّى) بالإضافة إلى مكتبة تحوي الكتب والمجلدات والمخطوطات توضع تحت تصرف الطلبة والمعلمين.

انتشرت المدارس على كامل ربوع الوطن (مدن، قرى، مداشر،...) واحتضنها الشعب بإقبال أبناؤه على التعلم والوقوف النذ للند ضد أطروحات مشاريع الفرنسة، فكانت المدارس تساهم في تكوين الأجيال، وتحضر الشباب المتفوقين للإرساليات صوب الجوامع الكبيرة مثل الأزهر والزيتونة والقرويين، وقد كانت مقدرة بـ⁽¹⁾:

- قسنطينة بها 90 مدرسة تحتوي على 1400 تلميذ سنة 1873.

- العاصمة بها حوالي 100 مدرسة لتعليم القراءة و الكتابة.

وكثيرا ما ظهر الدور الفعلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كما قال الشيخ -الابراهيمى- "صممت على تشييد مدارس فخمة بمال الأمة، لتحيا سنة البذل في سبيل العلم، وهي منقبة في المسلم نسيها بفعل التجذير الاستعماري، فأحييتها جمعية العلماء في نفوس الجزائريين، فثاروا في البذل وتنافسوا في بناء المدارس، وقابلت الجمعية هذا الاتجاه بما يكمله من برامج وكتب ومدرسين..."⁽²⁾ ويضيف الشيخ -الابراهيمى- في التعبير عن استنكار المستعمر لما حققته هذه المدارس من بناء وتعمير وتوسع مترامي الأطراف فقد تم " تأسيس المدارس العربية الإسلامية الحرة، يتولى أمرها جيل أخرجته مدرسة ابن باديس، و لقد بلغ عدد تلك المدارس أربعمئة، رغم مقاومة الاستعمار العنيفة، تسير كلها حسب منهاج واحد محكم الوضع، يغشاها ما يزيد عن مائة وخمسين ألفا من صبيان وبنات، تخرجت من بين صفوفهم أفواج من الطلبة، استكملوا دراستهم الثانوية في معهد بن باديس ثم أرسلت بهم الجمعية إلى المعهد الزيتوني الطيب الذكر بتونس، وعلى معاهد الشرق العربي، وأسفرت هذه الجهود عن تكوين جيل كامل من شعراء بلغوا الذروة، وكتاب مجيدين، وخطباء مفوهين، ودعاة مخلصين، ولقد قام كل من أولئك بواجبهم على الوجه الأكمل أثناء حربنا التحريرية الكبرى، وأن منهم لفريقا يتبوأ الآن مراكز مرموقة في مختلف ميادين الحياة الجزائرية"⁽¹⁾ ومن أشهر المدارس التي كانت منتشرة عبر التراب الوطني نجد: المدرسة الكتانية، و مدرسة سيدي الأخضر بقسنطينة، ومدرسة مازونة بتلمسان، مدرسة المروانية بعنابة، مدرسة ابن شعيب بتلمسان، ومدرسة الامامية، ومدرسة التاشفينية ببجاية، مدرسة حسن باشا بالعاصمة ومدرسة التربية

(1) الطاهر زرهوني، مرجع سابق، ص 252 .

(2) البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مرجع سابق، ص 423 .

(1) البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 45 .

والتعليم بتازمالت، والمدرسة القرآنية، ومدرسة سيدي أيوب بالعاصمة، وغيرها من مدارس في مناطق من الوطن.

3/ الزوايا: إضافة إلى المساجد والمدارس كانت للزوايا فضل كبير في تنشيط الحركة الفكرية في الجزائر إبان الاحتلال ونشر التعليم ومحاربة الجهل بين الأوساط الشعبية لتكون كالدرع الواقى من توسع أمراض الانحراف والتميع، إذ ركز رجالها نشاطهم على محاربة الانحراف الخلقي ومحاربة الطرقية، "وقد أرجع بعض الكتاب الفرنسيين فشل سياسة الفرنسية في الجزائر... إلى الزوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها، وكانت بمثابة مراكز دينية وثقافية ومدارس للكبار والصغار، ودور للمعالجة وإسعاف الفقراء، وملقى ذوي الرأي لحث المواطنين على الجهاد وعدم الولاء للكافر، ولم يعرف الفرنسيون لهذه الزوايا مثيلاً في أوروبا ولذلك لم ينتبهوا لخطورتها إلا بعد زمن طويل"⁽²⁾، وقد أدى تخوف الإدارة الاستعمارية من خطورة هذه المؤسسات عليها، فتربص بها، وأخذ يستميل رجالها بشتى الطرق والوسائل وبدأ يسرب الدسائس والأضاليل إلى ربوعها حتى يفقدها رسالتها، و تسخير رجال الطرقية المنحرفين المتواطئين مع الاحتلال فكان للزوايا أن "غرقت في دوامة من الصوفية الجوفاء، القصيدة العاجزة عن أي دور فكري إيجابي، بل لم يعد من رسالتها إلا أن تتحكم في عقول الناس بشعوذة دخيلة على الإسلام، أصيلة في خدمة المستعمر، بتسخير رقاب البسطاء له"⁽³⁾ وقد كان يطلق على الزوايا اسم "الرباطات" وهي "الثغور الذي يربط فيها المجاهدون المسلمون لحراسة حدود الدولة الإسلامية ضد الأعداء، ومن أجل الجهاد في سبيل نشر الإسلام في مختلف بقاع العالم"⁽⁴⁾ ومن أشهر الزوايا التي كانت موجودة زاوية القيطنة بمعسكر وزاوية شلاطة باقو و زاوية مازونة بتلمسان وزاوية الهامل بالمسيلة والزواوية القادرية، وزاوية بن الفكون بقسنطينة، وزاوية الزاوة وزاوية جرجرة وزاوية أولاد جلال ببسكرة.

4/ مؤسسات تعليمية أخرى: كان لها الحظ الأوفر في تعليم القراءة والكتابة للأطفال وتنشيط الفعل التربوي والثقافي في الجزائر مثل الدور الحضاري الذي لعبته الكتاتيب كأحد أبرز المؤسسات التعليمية والأكثر انتشاراً عبر كامل تراب القطر، فقد قدرت أعدادها بالآلاف، فالكتاب في الغالب يقع في حجرة واحدة أو حجرتين... وهو يقسم ما بين عشرة إلى عشرين ولداً وبناتاً⁽²⁾ والتعليم به تقليدي، بسيط، يعتمد على وسائل وإمكانيات ميسورة ودروسه لا تتعدى تحفيظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وبعض الأمور الشرعية كالفقه والنحو والصرف...

(2) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 60 .

(3) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 35 .

(4) تركي رايح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 238 .

(2) نفس المرجع السابق، ص 230 .

بالإضافة إلى الكتاتيب، كان دور النوادي والتي كانت محطات لإلقاء المحاضرات والدروس وتنظيم الندوات التي تعالج قضايا المجتمع و يوظفها مشايخ كبار وأئمة وأساتذة علماء إيجابي وفعال.

8- تأثير التعليم العربي على المجتمع الجزائري:

كان لنشوء المدارس التعليمية في الجزائر، وتطور إنشاء الكتاتيب والمساجد والجوامع والزوايا للنهوض بنشر اللغة العربية وتوسيع نطاق تعليمها، ومع تأسيس النوادي العلمية والجمعيات الثقافية للتوعية الدينية والوطنية، الأثر البالغ على نفوس الجزائريين، الذين التفوا بدورهم على هذه الهيئات والمؤسسات، ووقفوا إلى جنب مؤسسيها، ومساندة أساتذتها ومساعدة معلمها من رجال فكر ودين، مما خلق جوا ثقافيا باهرا امتد على كامل ربوع البلاد.

لقد ساهم نشر التعليم العربي من قبل نخبة مثقفة، تخرجت من بعض الجامعات والمؤسسات العلمية لدول شقيقة في إحداث تحول جذري على مستوى المجتمع الجزائري، مما عزز ثقة الفرد بنفسه وقدرته على رفع التحدي والصمود في وجه المستعمر، ومد الحس الوطني، مما أرسى قواعد بنية الهوية وتأكيد ثوابتها الوطنية والقومية والحضارية المتمثلة في حقيقة الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، ومقاومة السياسة الاستعمارية ودحر استراتيجيتها اللاتربوية الدسيسة والخسيسة.

أيضا بفضل توسيع نطاق التعليم العربي في تخليص المجتمع من عقدة التبعية للكيان الاستعماري، مما أوجد إحساسا بالاستقلالية والتحرر من قيد اللغة والدين، وبفضل مؤسسات التعليم العربي الناقلة لثقافة الأمة ولغتها، أصبح الاعتقاد السائد بحقيقة المجتمع وكنهه وهويته، فتعلق الفرد الجزائري بعقيدته وتمسك بثقافته وقوميته وتشبث بعرقته وتاريخه الحضاري الممدود، وهو ما شكل نقلة في نضج الوعي الشعبي رغم دسائس المستعمر التي كما قال الشيخ الإبراهيمي: "... أن الاستعمار صليبي النزعة، فهو - منذ أن احتل الجزائر - عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاملية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله"⁽¹⁾.

إن التعليم العربي في مؤسسات حتى ولو كانت بسيطة وبإمكانات شحيحة فإنه استطاع أن يمد جسور الوحدة الشعبية، ويحافظ على التماسك الشعبي بعيدا عن الاستراتيجية اللاتربوية الاستعمارية الداعية إلى

(1) البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 419 .

الشرذمة والتفرقة وزرع القبلية والصراع الطائفي (فقد زعم رجال الاحتلال أن الامازيغ "البربر" لم يكونوا مسلمين حقيقيين ولذلك فليس من العسير تفريقهم عن العرب واستمالتهم إلى جانب فرنسا، ومن أجل ذلك أُنشئت فرنسا من إنشاء المدارس في المناطق البربرية ومنعت الحديث فيها باللغة العربية وقصرته فقط على اللهجات البربرية واللغة الفرنسية، ثم منعت رجال جمعية العلماء من الذهاب إلى تلك المناطق بقصد إنشاء مدارس عربية فيها لتعليم سكانها اللغة العربية والدين الإسلامي⁽¹⁾، لكن المستعمر خاب في مسعاه وجدد الجزائريون تمسكهم بوحدتهم الترابية والشعبية وزاد تعلقهم بأصالتهم الدينية العريقة وترسخت أكثر الجذور العميقة لهوية الأمة.

المجتمع الجزائري لم يكتف بتشجيع المشهد الثقافي وتوسيع نطاق تعليم اللغة العربية، بل تعداه إلى إجبار العائلات والأسر الجزائرية على إلزامية بعث أبنائها إلى مؤسسات التعليم سواء في القرى والمدن أو في حواضر المدن، حتى يتم القضاء على مشاهد الجهل والأمية، مما أعطى انعكاسا إيجابيا في الأوساط العامة و دفع بالكثير من المتعطشين والمتشوقين للنهل من مشارب العربية إلى الاستجابة إلى هذه الدعوات الحسنة، هذا الإقبال أذهل الجزائريين قبل المستعمر، ويقول أحمد توفيق المدني حول سعي الجزائريين "...إلى بناء وتعمير المساجد الحرة التي تباهى بها القوم عندنا برفع قواعدها من طراز معماري أندلسي أصيل، وبذلوا في سبيل إقامتها، كما بذلوا في سبيل بناء المدارس الحرة ما ملكته أيديهم من مال وما ملكته نساؤهم من حلي، فكان الناس عندنا رجالا ونساء يؤثرون الله والعروبة على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"⁽²⁾، وبذلك محى التعليم العربي صورة: طفل مشرد، طفل جاهز، طفل أمي، طفل منحرف، أو بالأحرى صورة طفل عديم ورسم عنها مشهد لافتة طفل طموح وصلاته الإسلام، ومعقله الوطن وقبلته المعرفة العربية.

* المراجع المعتمدة:

* مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العددان 17 / 18، السنة الرابعة، الجزائر 1974/73.

* تركي رايح، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، العدد 88 .

(1) تركي رايح، مرجع سابق، ص 129 .

(2) أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 45-46 .

* تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2 الجزائر 1981.

• مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

• صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان/ جويلية، الجزائر 1974.

• أحمد بن نعمان، مقاومة المجتمع الجزائري لسياسة الفرنسية، مجلة الثقافة، العدد 52، السنة التاسعة، جويلية/ أوت، الجزائر 1979.

• شاتيليه، الغارة على العالم الإسلامي، ت/ محب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، ط2، جدة 1987.

• البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة العدد 87، السنة 15، ماي/ جوان 1985.

• البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، محاضرة نشرت بمجلة الثقافة العدد 87، السنة 15، ماي/ جوان 1985 *

• الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، مجلة الثقافة العدد 9، السنة 16، الجزائر 1986.

• أحمد توفيق المدني، مجلة الثقافة، العدد 87 السنة 15 ماي/ جوان 1985.

